نشأة الكتابة العربية وتطورها(*)

د. مروة مصطفى السيد

ينظر العلماء إلى الكتابة بوصفها أقدم وأهم حدث في تاريخ البشرية؛ وذلك لما تمتاز به من كونها وسيلة الإعلام الوحيدة التي تتسم بالثبات والديمومة؛ أي وسيلة نقل المعلومات والمعارف من إنسان إلى إنسان ومن زمن إلى زمن."(١) "وقد مضت قرون طويلة كان البشر فيها يتفاهمون، إما بالإشارة أو بالأصوات الغامضة، وكانت لكل مجموعة من البشر سمات التفاهم الخاصة بها إلى أن أمكن التوصل إلى بدائيات الكتابة من خلال النطق والسمع"(٢)

ومن خلال استقراء تاريخ الكتابة يمكن حصر الطرائق المختلفة للكتابة في قسمين رئيسين:

١. "الكتابات التصويرية المعبرة عن المعاني semasiography؛ ففي هذا النوع عبر الإنسان عما يريد من معان بوساطة صور ذات صلة بالأشياء المحسوسة وغيرها، ثم ابتعد شيئًا فشيئًا عن الصورة الأصلية حين أوجد الرموز.

٢. الكتابات المعبرة عن الأصوات phonography؛ وفي هذا النوع بدأ الإنسان يجرد الأشياء ويفكر بالأصوات المنطوقة، فتوصل إلى الكتابات المقطعية، ومن ثم توصل الإنسان إلى الألفبائية التي تعتمد الصوت الفرد في معظم كتابات العالم المعاصر."(٣)

"ويرى كثير من المختصين أن المصريين القدماء كانوا أول من عرف الكتابة وسجلها على القبور والآثار، وبدأت الكتابة تأخذ طريقها عن الشعوب القديمة كالسامية والسومرية والآرامية والآشورية والكلدانية والفينيقية والعبرية وغيرها من الكتابات التي اختصت بها الشعوب القديمة والوسيطة. والواقع أنه منذ الأزمنة السحيقة ارتبطت الكتابة بالنقوش والفنون وخاصة حين كانت الكتابة تأخذ تعبيرها عن طريق الرسوم والأشكال ورأينا في الآثار العربية القديمة خليطًا من النقوش الكتابية والكتابة النقشية."(٤)

أما عن الكتابة العربية فقد تباينت الآراء في أصلها وكيفية تطورها، ويمكن أن نلخص تلك الآراء في مجموعتين هما: مجموعة آراء الباحثين والمؤرخين الذين اعتمدوا على الأخبار والروايات التاريخية، ومجموعة آراء الباحثين الذين اعتمدوا على الشواهد والمكتشفات الأثرية، ويمكن تلخيص آراء المجموعة الأولى بالنقاط التالية:

(*) ألقيت هذه الورقة البحثية في مؤتمر "الأبجدية الكورية وأبجديات العالم" بكلية الألسن، جامعة عين شمس، ٤ يناير ٢٠١٨.

(١) د. أحمد هبو: الأبجدية: نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٨٤، ص٦.

(٢) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت، ص٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩ بتصرف.

(٤) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، ص٧.

١. "أن الخط العربي نزل توقيفًا من الله تعالى مع سائر الخطوط والكتابات وأول من استخدمه هو آدم عليه السلام، كتبه في الطين، وقيل إن النبي إدريس عليه السلام هو أول من كتب بعد آدم أو أن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام أول من وضع الكتابة العربية.

٢. أن أشخاصًا معينين هم الذين كتبوا بالعربية ووضعوا حروفها، فقيل إن أول من وضع ذلك هم قوم من العرب العاربة وهم أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت، وضعوا الحروف العربية على أسمائهم ثم وجدوا أن حروفًا لم تذكر ضمن حروف أسمائهم فألحقوها بها وسموها بالروادف.

٣. أن الخط العربي نُقل من الخط الحميري وجزم منه، وأن أهل الأنبار تعلموه من أهل اليمن."(١)

وهي في جملتها تفتقر إلى الدليل المقنع؛ حيث "إن دراسة هذه الأمور لا يمكن أن تكون إلا بطريق مقارنة الخط العربي بالخطوط التي سبقته، سواء أكانت من أسرة الخط الآرامي أو من أسرة الخط الحميري المسند. وقد قام بهذه الدراسة المقارنة بعض العلماء انتهوا إلى أن الخط العربي لم يتأثر أو يقتطع من الخط السرياني على ما فيهما من فروق أو تشابه. والحيرة كانت لا شك، مركزًا حضاريًا وكانت الكتابة من ثمرات الحضارة التي كانت فيها لكنها كانت تدين بالنصرانية، وكان أهلها يكتبون السريانية، أو بما سمي بالخط الحيري. فلو انتقلت الكتابة من الحيرة لانتقلت السريانية أو ما يقاربها. ولم تصل إلينا نصوص حيرية، من خطوط الحيرة والأنبار حتى نقارن بينها وبين الخط العربي القديم، هذا فضلًا عن بعد الحيرة والأنبار عن مكة ولا بد في مثل هذه الأمور الحضارية من اتصال دائم مباشر، ولم يكن الأمر كذلك بين مكة والحيرة. وكذلك دلت الدراسات المقارنة على أن الخط العربي لم يقتطع من الخط المسند الحميري، أو فروعه التي عرفت عند الثموديين والصفويين واللحيانيين، فهناك اختلاف كبير في شكل الحروف وتركيب الكلمة بين الخط العربي وهذه الخطوط."(٢)

أما آراء الباحثين الذين اعتمدوا على الشواهد الأثرية فتؤكد أن الخط العربي مأخوذ من الخط النبطي؛ "وأول من عثر من المستشرقين على نقوش نبطية هو John Lewis Burckhardt وذلك سنة ١٨٢٢، ثم اقتفى أثره سائر المستشرقين، فهؤلاء عثروا على نقوش وكتابات تحمل اسم جماعة تعرف بالنبط كانت تسكن مدين وما يجاورها من الأنحاء الشمالية للبلاد العربية وبعد أن قرأوا هذه النقوش ودرسوها تبين لهم بالمقارنة أنها هي الأصل الذي تفرع منه الخط العربي. كان الأنباط من العرب أغاروا في العصر الهليني على البلاد الآرامية في فلسطين وجنوب الشام ثم دخلوا شرق الأردن. فكانوا في شمال الجزيرة العربية وجنوب الشام، وفي القرن الرابع ق. م كانوا يهيمون على طرق التجارة بين جنوب الجزيرة العربية حتى البحر الأبيض وبين الشام ومصر. وقد ظلت هذه الطريق التجارية بين مكة ويثرب والشام تسلكها القوافل حتى بعد ظهور الإسلام، وظلت أيضًا الطريق التي تتبعها قوافل الحجاج بين الشام ومكة، وعلى هذا فقد

---

(١) أسامة ناصر النقشبندي: مبدأ ظهور الحروف العربية وتطورها لغاية القرن الأول الهجري، المورد، العراق، مجلد ١٥، العدد ٤، ١٩٨٦، ص٨٣، ٨٤.

(٢) د. صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط االعربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط٢، ١٩٧٩، ص١٢، ١٣.

أجبرت هذه الطريق عرب الشمال أن يمروا دائمًا في رحلاتهم عبر مدائن صالح وبلاد الأنباط في الذهاب والإياب، وأن يقتبسوا منهم أساليب الحياة وطرق الكتابة... وكانوا يتكلمون بالعربية في أحاديثهم اليومية، إلا أنهم اختلطوا بالآراميين عن طريق التجارة وأخذوا عنهم أبجديتهم أو خطهم وكتبوا به نقوشهم. وعلى هذا فإن الكتابة النبطية كتب بها الأنباط منذ محاكاتهم الخط الآرامي، في أثناء قيام مملكتهم وبعد زوالها، فلما سقطت دولتهم انتشروا في الحجاز، وأخذ شيوخ العرب وأمراؤهم يتخذون خطهم في كتابة نقوشهم، وسرعان ما تطور هذا الخط النبطي الآرامي إلى الخط العربي الجاهلي الذي لا يختلف كثيرًا عن الخط النبطي في آخر مراحله."(١)

أصل الأبجدية:

أما عن الأبجدية المستخدمة في الكتابة النبطية، فهي مأخوذة عن الآرامية:" وأخذ الآراميون عن أشقائهم الفينيقيين كتابتهم دون إضافة إليها. وهم شعب سامي ظهر تاريخيًا بعد الفينيقيين واستوطن مناطق شاسعة تقع معظمها في قلب سورية وبلاد الرافدين."(٢) وتعد الأبجدية الخاصة بها الأصل الذي أخذت منه أبجديات العالم؛ فقد "ظهرت في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد الكتابة الألفبائية السامية، عنصرًا جديدًا وسهلًا إلى جانب تلك الكتابات المعقدة المؤلفة من صور ورموز ومقاطع صوتية تحتمل قراءات مختلفة، كتابة بسيطة المبدأ؛ لأنها تعتمد على اثنين وعشرين شكلًا لا يدل الشكل الواحد فيها على معنى بل يمثل صوتًا واحدًا، ولا يحتمل سوى قراءة واحدة، ويرسم بشكل بسيط غير معقد، يستطيع كل امرئ كتابته واستخدامه في كل كلمة تخطر في باله. وهي كتابة غير كاملة؛ لأنها لا تعرف الأصوات الصائتة (الحركات) ولا تكتبها نتيجة طبيعية لبناء لغتها وتركيب موادها اللغوية (الثلاثية الأصول)، ولكنها كانت أساسًا لكل الأبجديات المعروفة في العالم. للحروف السامية أسماء خاصة عرفت بها منذ القديم، إلا أن أقدم ذكر لها ورد في كتابات الأحبار اليهود، وفي مخطوطات العهد القديم اليونانية (السبعينية) وبالحروف اليونانية طبعًا. أما معاني تلك الأسماء فهي ليست ثابتة، ولم يتوصل الباحثون إلى اتفاق حولها. ومع ذلك فإن عددًا كبيرًا منها يحمل المعنى التالي: ألف: ويعني (ثور)، بيت: ويعني (بيت)، جيمل: ويعني (جمل)، دالت: (باب)، واو: (وتد)، زين: (سلاح)، كاف: (كف)، يود: (يد)، ميم: (ماء)، نون: (نون= سمكة)، شين: (سن)، عين: (عين)، بيه: (فوه)، ريش: (رأس)، تاو: (علامة). أما بقية الأسماء فمن الصعوبة بمكان إيجاد معنى ثابت لها لا يحتمل الخطأ. إن وجود هذه الأسماء والدلالة التي تحملها يعني من دون شك أن مخترع هذه الكتابة بعامة وتلك الحروف بخاصة اعتمدا المبدأ الأكروفوني- الذي يعني تجريد الصورة من معناها وإعطاءها قيمة صوتية تنتزع من معنى الصورة الأساسي، وتعني الصوت الأول منه؛ فكان يرسم بيت ويقرأ (ب). وتعرف الحروف السامية، التي كتبت منفصلة عن

---

(١) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية ، ص٢٤: ٢٧ بتصرف، وانظر أيضًا: خليل يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مصر، مجلد ٣، ١٩٣٥، جـ١، ص ٦: ١٠.

(٢) د. أحمد هبو: الأبجدية: نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، ص ٨٢، ٨٣.

بعضها ومن اليمين إلى اليسار، الترتيب الأبجدي: أ ب ج د ه و ز ح ط ي ك ل م ن س ع ف ص ق ر ش ت. ومن المعروف أن السريانية تعرف الترتيب نفسه وكذلك العربية (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت) وتضيف ستة حروف أخرى وهي (ث خ ذ ض ظ غ)."(١)

ويوضح الشكل(٢) التالي المقصود بالمبدأ الأكروفوني في تجريد الصورة من معناها وإعطائها قيمة صوتية تنتزع من معنى الصورة الأساسي، وتعني الصوت الأول منه:

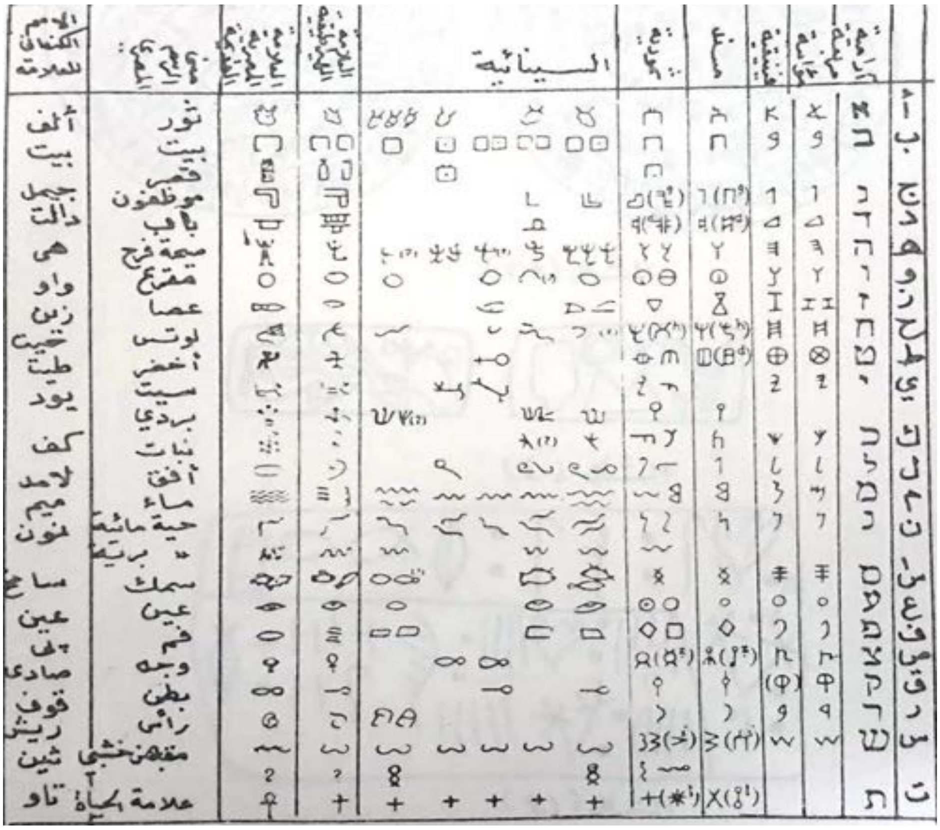

كما يمثل الشكل(٣) التالي نموذجًا للحروف العربية القديمة والحروف النبطية المتأخرة كما وردت في النقوش:

---

(١) المرجع السابق، ص ٧٤: ٧٦ بتصرف.

(٢) المرجع السابق: ص١٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٨.

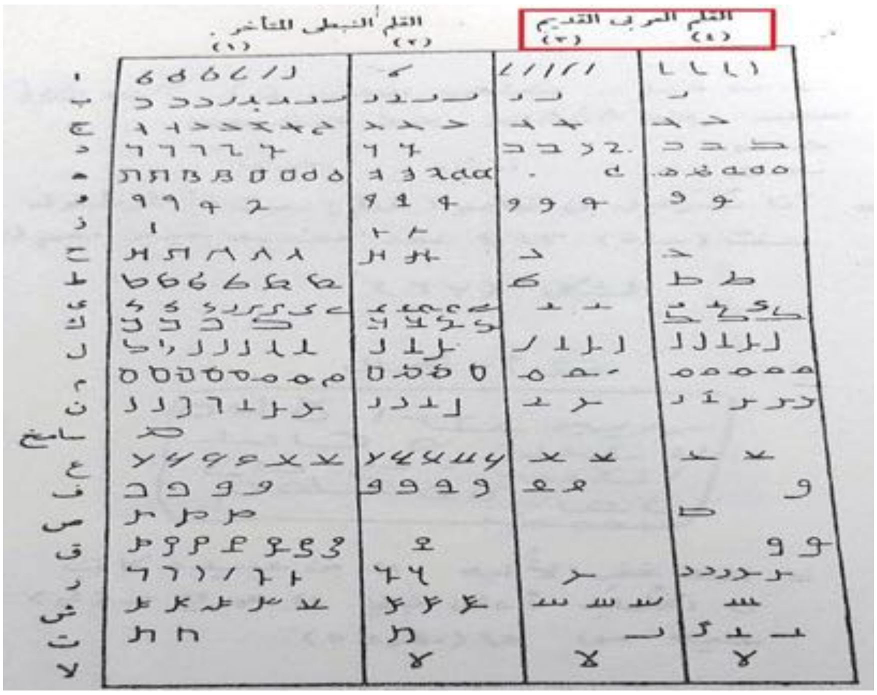

ويلاحظ أن عدد الحروف العربية كان مختلفًا عن السامية: "يلاحظ من خلال التدقيق في عدد حروف العربية أنها قلصت عدد الحروف السامية الفينيقية من اثنين وعشرين حرفًا إلى أربعة عشر فقط. وذلك نتيجة لاندماج الأصوات الثلاثة ج، خ، ح في شكل واحد. ولا يغرب عن البال أننا نتحدث هنا عن الكتابة العربية القديمة قبل ابتكار النقاط والحركات؛ ثم إن الراء والزاي (ر– ز) كانتا تكتبان بشكل واحد (من دون نقطة للزاي طبعًا)، والباء والتاء (ب– ت) كذلك. كما صارت الباء والتاء والنون والياء (بـ ، تـ ، نـ ، يـ) تبدو في بداية الكلمة وفي وسطها واحدة، ومثلها حرفا الفاء والقاف (ف– ق). أما اتصال اللام بالألف (لا) الثابت فكان معروفًا من نقش النمارة ومن الكتابات النبطية المتأخرة بعامة."(١)

الكتابة العربية في عصر ما قبل الإسلام ثم عهد الرسول (ﷺ) وما بعده:

كانت الكتابة موجودة قبل الإسلام، وبنزول القرآن وانتشاره في الأمصار المفتوحة احتاجت الكتابة إلى بعض الضبط بسبب دخول الأعاجم في الإسلام: "لقد كانت الكتابة منتشرة في مكة قبل الإسلام لأنها كانت مركزًا تجاريًا. ويذكر البلاذري: دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتبون. لما جاء الرسول ﷺ اتخذ لنفسه بضعة كُتَّاب. كانت فصاحة العرب وبلاغتهم موهبة إلهية، وفطرة غريزية فطرهم الله عليها، غير مكتسبة بالتعليم، لذلك كانوا يكتبون ويقرأون قراءة صحيحة فصيحة، وكانت لهم أيضًا ملكة قوية لا يحتاجون بها إلى وضع علامات لتمييز الحروف المتشابهة في الصورة (الجيم والحاء

(١) المرجع السابق، ص٨٨.

والخاء) فيدركون من سياق المقام وقرائن الأحوال. لذلك لم يكن الشكل والإعجام معروفًا عندهم."[١]
ويوضح الشكل[٢] رسالة النبي (ﷺ) إلى المنذر بن ساوي:

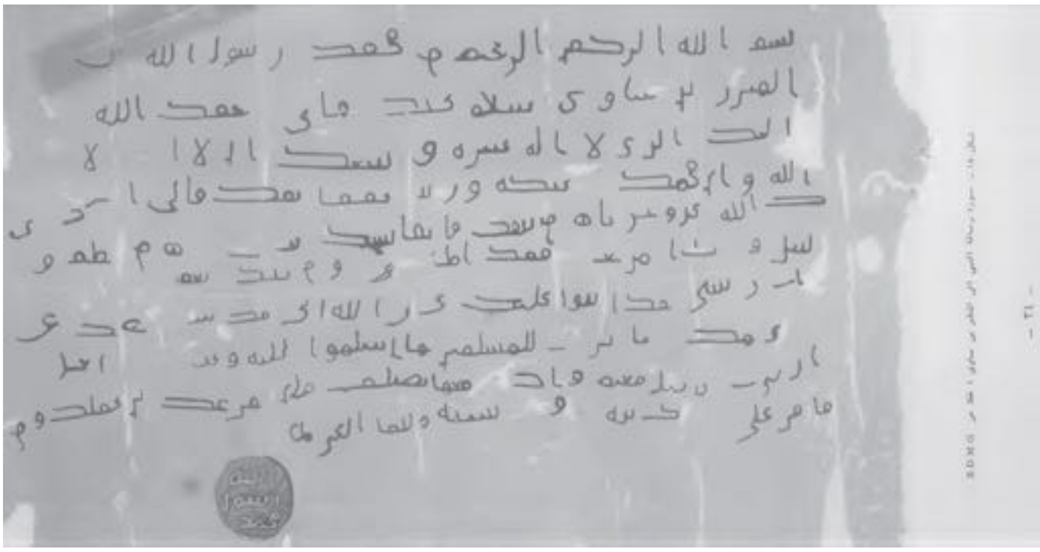

ويلاحظ من الشكل عدم وجود النقط والتشكيل، واختلاف الحروف عن شكلها الحالي.

مراحل الإصلاح في الخط العربي:

"لما ظهر الإسلام وانتشر واختلط العرب بالأعاجم يوم فتحوا بلادهم، وصاهروهم في صدر الإسلام، بدأ اللحن في ألفاظهم، فخشي العرب أن تفسد الألسنة وتضيع من ذلك لغتهم، وأن يتطرق الخطأ إلى القرآن. فكل هذه الأسباب حفزت العرب إلى وضع طريقة في الكتابة لإصلاح ألسنة الأعاجم عند القراءة، وكانت الطريقة لإصلاح اللحن هي شكل الحروف، والمقصود بالشكل هو ضبط الكلمة بالحركات؛ لتؤدي المعنى المقصود منها."[٣] وقد مر الإصلاح بعدة مراحل:

الإصلاح الأول: تشكيل الحروف:

لم يكن العرب أول من اهتدى إلى مسألة الشكل في الكلمات؛ فقد سبقهم السريان: "إن أول من وضع الشكل في الكلمات هم السريان، وذلك عندما دخلوا في النصرانية، ونقلوا الكتب المقدسة إلى لغتهم، ورأوا أن بعض الناس يلحنون في قراءتها فخافوا أن ينشأ عن ذلك تحريف في اللفظ قد يغير المعنى، فاخترع الأسقف يعقوب الرهاوي الملقب بمفسر الكتب (ت٤٦٠ م) الشكل، وكان الشكل عندهم بالنقط، فاقتدى العرب بالسريان في اتخاذ الحركات بالنقط الكبيرة والصغيرة، ثم استبدلوا بها الحركات المستقلة.

---

(١) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، ٤١: ٤٧ بتصرف
(٢) د. صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط االعربي، ص٣٤.
(٣) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، ٤١: ٤٧ بتصرف.

ويُعتقد أن أبا الأسود الدؤلي أول من ابتدع علم النحو ووضع أساس الشكل للأحرف العربية، وهو الذي أحدث الشكل في الخط الكوفي، وذلك سنة ٦٧هـ وضعه بأمر من زياد في زمن الخليفة معاوية بن أبي سفيان. بادر أبو الأسود بوضع الشكل على أواخر الكلمات وبدأ بالمصحف، حيث استحضر كاتبًا وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ صبغًا يخالف لون المداد فيضع نقطة واحدة فوق الحرف إذا رأى أبا الأسود يفتح شفتيه على آخر ذلك الحرف وهذه النقطة هي الفتحة (زَ= رَ) وإذا رأى أبا الأسود قد خفض شفتيه عند آخر الحرف نقط نقطة تحت الحرف، من ذلك الصبغ المخالف للون المداد فيكون هو الكسر (ر.= رِ)، فإذا ضم شفتيه جعل الكاتب النقطة بين يدي الحرف (أمامه) فيكون هذا هو الضم (ر.= رُ). أما إذا تبع الحرف الأخير نقطتين أحدهما فوق الأخرى فهذا هو التنوين."(١)

الإصلاح الثاني: إعجام الحروف المتشابهة:

"بمعنى آخر تمييز الحروف المتشابهة الرسم بوضع علامة عليها لمنع اللبس. وقد تم ذلك في الثلث الأخير من القرن الأول الهجري، أي في زمن خلافة عبد الملك بن مروان. كثر التصحيف في القراءة خصوصًا في العراق لكثرة الأعاجم فيها؛ لذا فقد دعا الحجاج بن يوسف الثقفي (الذي كان واليًا على العراق) نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٨٩ هـ ويحيى بن يعمر العدواني قاضي خراسان المتوفى سنة ١٢٩ هـ لوضع الإعجام بمعنى النقط، ونقطت الحروف بمداد الكتابة نفسه؛ لأن نقط الحروف جزء منه. وقد تفنن أتباع نصر بن عاصم في شكل النقط، فمنهم من جعلها مربعة ومنهم من جعلها مدورة مسدودة الوسط ومنهم من جعلها مدورة خالية الوسط (• □○). وبعد الإعجام (النقط) وجدت الحاجة ماسة إلى التمييز بين علامات الشكل التي وضعها أبو الأسود الدؤلي أو الإعجام (النقط) التي وضعها كل من يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم، حيث إن الأدوات في الشكل والنقط هي النقط، ولو أن نقط الشكل كانت بمداد مخالف للون مداد الكتابة، إلا أنه حدث اللبس، لذلك فقد أجري الإصلاح الثالث والأخير في العصر العباسي الأول."(٢)

الإصلاح الثالث: الحركات:

"عني الخليل بن أحمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٠ هـ بهذا الأمر وكان أوسع الناس علمًا بالعربية؛ حيث أبدل نقط الشكل التي وضعها أبو الأسود بثماني علامات (الفتحة والضمة والكسرة والسكون والشدة والمدة والصلة والهمزة). جرات علوية وسفلية للدلالة على الفتح والكسر- رأس واو للدلالة على الضم، وإذا كان الحرف منونًا كررت العلامة فكتبت مرتين فوق الحرف أو تحته- السكون الخفيف- اصطلح أن يكون رأس خاء بلا نقطة (حـ) أو دائرة (هـ) وأن يكون السكون الشديد هو السكون الذي يصاحبه (ّ) إدغام على هيئة رأس حرف شين بغير نقط- الهمزة رأس عين (ء). وبهذه الطريقة أمكن أن يجمع الكاتب

---

(١) المرجع السابق، ص ٤٨، ٤٩.
(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

بين الكتابة والإعجام والشكل بلون واحد. واستعمل الخليل هذه الطريقة في كتب اللغة والأدب دون القرآن حرصًا على كرامة أبي الأسود وأتباعه واتقاء لتهمة البدعة في الدين."[١]

انتشار الخط العربي واتخاذه فنًا:

أدى انتشار الإسلام إلى انتشار الكتابة العربية في مناطق مختلفة، وتلقفها كل شعب وأبدع في استعمالها: "فتلقفتها شعوب: الفرس والأتراك، والهنود، والملايو، وبعض شعوب إفريقية الشمالية والوسطى والشرقية والغربية. ولما كانت بعض لغات تلك الشعوب تعرف أصواتًا لا تشتمل عليها العربية، فقد لجأت إلى ابتكار إشارات خاصة تدل بها على أصواتها الخاصة أضافتها إلى أشكال الحروف العربية. كما نتج عن انتشار الخط العربي بين الشعوب أن زادت أنواعه المعروفة؛ فظهر الخط المغربي في المغرب العربي والأندلس. وتوصل الفرس إلى خط رشيق أسموه (نِستعلق) استخدموه في المخطوطات وفي طباعة الشعر. أما الأتراك فابتكروا خط الرقعة السلس وخط الثلث والإجازت. ثم ما لبث أن ارتدت بعض الشعوب الإسلامية عن الخط العربي، ووقعت تحت تأثير الكتابة اللاتينية؛ كالأتراك والأندونوسيين مثلًا."[٢]

وتوضح الصور[٣] التالية نماذج من فن الخط العربي:

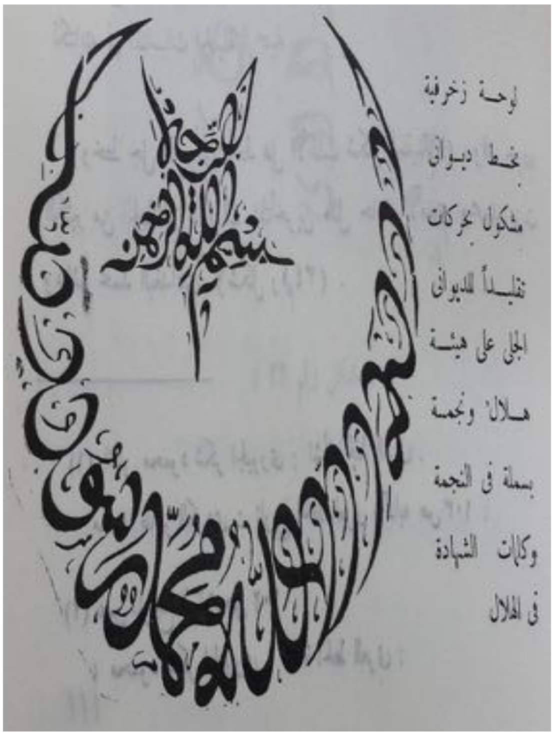

(١) المرجع السابق، ص ٥٢، وانظر أيضًا د. أحمد هبو: الأبجدية: نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، ص٨٩.
(٢) د. أحمد هبو: الأبجدية: نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، ص ٨٩، ٩٠.
(٣) د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، ص ٩٠، ٩٤، ١٠٢، ١٠٩.

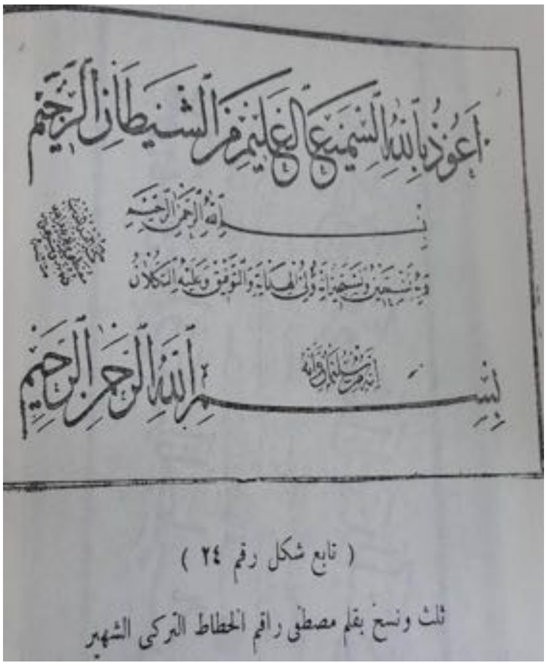

(تابع شكل رقم ٢٤)

ثلث ونسخ بقلم مصطفى راقم الخطاط التركي الشهير

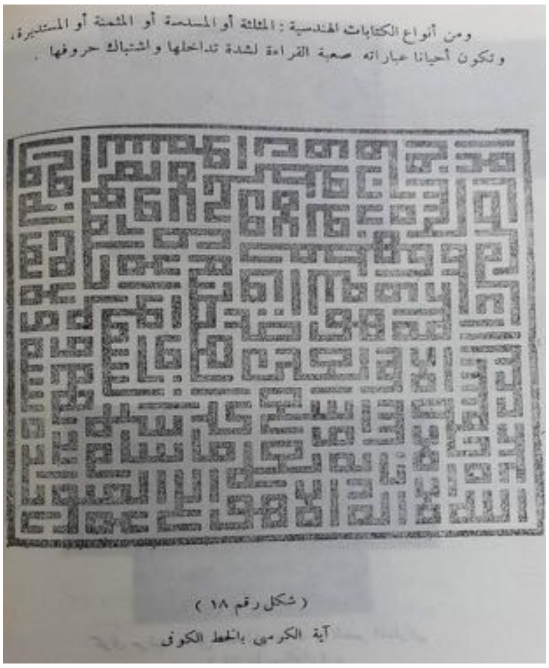

ومن أنواع الكتابات الهندسية : المثلثة أو المسدسة أو المثمنة أو المستديرة، وتكون أحيانا عباراته صعبة القراءة لشدة تداخلها واشتباك حروفها .

(شكل رقم ١٨)

آية الكرسي بالخط الكوفي

المراجع

١. د. أحمد هبو: الأبجدية: نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب، دار الحوار، سوريا، ط١، ١٩٨٤.

٢. أسامة ناصر النقشبندي: مبدأ ظهور الحروف العربية وتطورها لغاية القرن الأول الهجري، المورد، العراق، مجلد ١٥، العدد ٤، ١٩٨٦.

٣. خليل يحيى نامي: أصل الخط العربي وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، مصر، مجلد ٣، ١٩٣٥.

٤. د. صلاح الدين المنجد: دراسات في تاريخ الخط العربي منذ بدايته إلى نهاية العصر الأموي، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط٢، ١٩٧٩.

٥. د. محمود عباس حمودة: دراسات في علم الكتابة العربية، مكتبة غريب، القاهرة، د.ط، د.ت.

* * *